التصوير على الأقداح والأوانى والمصابيح

لهج الشعراء بذكر الكؤوس المصوَّرة ووصف تصاويرها ؛ فمن ذلك قول عبد الله ابن المعتز :

بدا والصبح تحت الليل بادٍ ... كطِرْفٍ أباق مُرْخَى الجِلال
بكأس من زجاج فيه أُسْدٌ ... فرائسهنّ ألباب الرجال (٨٧)

وقال أبو فراس :

أغمامُ ما يدريك ما أفعالنا* ... والخيل تحت النَّقْع كالأشباح
تطفو وترسب فى الدماء كأنّها ... صور الفوارس فى كؤوس الراح (٨٨)

وقال أبو الفرج الببَّغاء فى قدح أزرق فيه صور :

فعاطنيها بكراً مشعشعةً ... كأنها فى صفائها خُلُق
فى أزرق كالهواء يخرقه اللحـ ... ـظ وإن كان غير منخرق
ما زلت منه مناديماً لُعَبًا ... مذ أسكرتها السقاة لم تُفِق
تختال قبل المزاج فى أزرق الفجـ ... ـر وبعد المزاج فى الشفق
تغرق فى أبحر المدام فيستنـ ... ـقذها شربنا من الغرق (٨٩)

وقال ابن حمديس الصقلىّ :

حمراء تشرب بالأنوف سلافها ... لُطْفاً وبالأسماع والأحداق
بزجاجة صور الفوارس نقشها ... فترى لها حرباً بكفّ الساقى
وكأنما سفكت صوارمها دماً ... لبست به طوقاً إلى الأعناق
وكأنَّ للكاسات حمر غلائل ... أزرارها درر على الأطواق (٩٠)

(*) رواه الصفدي فى « نصرة الثائر » : كيف قتالنا .

وقال أبو العباس الناشئ :

ومدامة لا يبتغى من ربه ... أحدٌ حباه بها لديه مزيدا
فى كأسها صور تظنّ لحسنها ... عرباً برزن من الخيام وغيدا
وإذا المزاج أثارها فتقسمت* ... ذهباً ودرًّا توْأماً وفريدا
فكأنهن لبسن ذاك مجاسداً† ... وجعلن ذا لنحورهنّ عقودا(٩١)

وقال ابن نباتة المصرىّ :

سَقْياً لأيّامىَ التى سلفت ... ما بين ذاك النعيم والمرح
لا ينزل الدهر عن يدى قدحاً ... كأنّنى صورة على قدحى(٩٢)

وأنشد صلاح الدين الصفدىّ لنفسه فى «فض الختام عن التورية والاستخدام»(٩٣) :

كؤوس المدام تحبّ الصفا ... فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذج من نقشها ... فأحسنُ ما ذُهِّبت بالطلا

وأكثر بعض الشعراء فى وصفهم لتصاوير الكؤوس من ذكر قيصر وكسرى وبابك وفرسان الفرس ، مما يشعر بأنهم يصفون صناعة أعجمية لا علاقة لها بالعرب ؛ كقول أبى نواس :

بنينا على كسرى سماء مدامة ... جوانبها محفـــوفة بنجوم††
فلو رُدَّ فى كسرى بن ساسان روحه ... إذاً لاصطفانى دون كل نديم(٩٤)

وقوله :

تزوّج الخمر من الماء فى ... طاسات تبر خمرها يفهق
منطّقات بتصاوير لا ... تســـمع للداعى ولا تنطق
على تماثيل بنى بابك ... محتفر ما بينهم خندق

(*) رواية الصفدى فى « نصرة الثائر » : فتنمنمت .
(†) المجاسد بفتح الأول الثياب المصبوغة بالزعفران وأحدها مجسد بكسر أوله وضمه .
(††) فى مجموع شعرى يرجح أنه للعصفورى : مكللة حافاتها بنجوم .

كأنهم والخمر من فوقهم كتائب فى لجّة تغرق[٩٥]

وقال السَرِىّ الرفاء :

وموسومة كاساتها بفوارس من الفُرْس تطفو فى المدام وتغرق
أقابل منهم كل شاكٍ سلاحه وفى يده سهـــم إلىَّ مفوّق*
كأنَّ الحباب المستدير قلادة عليه وتوريد المدامة يَلْمَق†[٩٦]

وقال المجد ابن قلاقس :

دارت زجاجتها وفى جنباتها كسرى أنو شروان فى إيوانه
فخلعت عن عطفيه حلّة قهرة وشربتها فغدوت فى سلطانه[٩٧]

وقال أيضاً :

لو لم يصبها الماء حين توقّدت بيد المدير لخفت أن تتسعّرا
وبنيتها قصراً سقيت براحتى كسرى أنو شروان فيه وقيصرا[٩٨]

وقال أيضاً :

أنهكت جسمها السنون فلولا عَرفها لم يكن بها ذا اعتراف
فاحى فى الكأس جسم كسرى براح تبعث الروح مِنه فى الأعطاف[٩٩]

وقال أيضاً :

وزجاجة حياك منها قيصر وكأنّما هو فى جوانب قصره
ما ألبسته الراح ثوباً مذهباً إلا وقلّده الحباب بدرّه[١٠٠]

وقال فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس :

إذا ما أديرت فى حشا عسجديَّة بها كلّ ذى تاج وقصر تصوّروا††

(*) الذى فى «الشرح الجلى على بيتى الموصلىّ» : أقبل منهم .

(†) اليلمق القباء معرب يلمه .

(††) فى بعض الروايات : كل ذى تاج وملك .

فحسبك حظا* فى السعادة أن ترى ... نديمك فى الكاسات كسرى وقيصرا(١٠١)

وقال جمال الدين بن نباتة المصرى :

والكأس فى يد ساقينا مشعشعةٌ ... تضىء من حول كسرى ضوء بهرام†

قد أسرجت وغدت للهمِّ مُلْجِمَةً ... فهى الكُميت بإسراج وإلجام(١٠٢)

وقال صلاح الدين الصفدىّ مضمّناً :

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها ... فأضحى ينادى وهو فيها مصوَّر

وقفت لشوقى من وراء زجاجة ... إلى الدار من فرط الصبابة أنظر(١٠٣)

والأصل قول أحد شعراء الحماسة :

نظرت كأنى من وراء زجاجة ... إلى الدار من فرط الصبابة أنظر

فعيناى طوراً تغرَقان من البكا ... فأعْشَى وطوراً تَحْسِران فأبصر(١٠٤)

وقال ابن حبيب :

قل للذى من راحنا يشتكى ... ظُلْماً ولم يشعر براحاتها

الظلم فى مجلسها لا يُرى ... أنّى وكسرى حول كاساتها(١٠٥)

وقال ابن سناء الملك :

ألا إن شرّاب المدام هم الناس ... وغيرهم فيهم جنون ووسواس

فيا ليت أنى مثل كسرى مصوَّر ... فليس يزال الدهرَ فى يده كاس(١٠٦)

وقال أيضاً :

ما الدر إلا ذا الحبا ... بُ وإننى بالدرّ أدرى

شِعْرَى وشِعْرَى فى السما ... ء وفى كؤوسك ألف شِعْرَى

(*) فى بعض الروايات : فحسبك نبلا فى السيادة .

(†) بهرام من ملوك الفرس وهو أيضاً اسم المريخ .

منَّت عليـــــك ولا كما منَّت على أشـلاء كسرى
الخلق لما عاش قـــــد سـجدوا له طوعاً وقسرا
والـكل لما مات قـــــد سجدوا له فى الـكأس شكرا(١٠٧)

وقال أيضاً :

شربنا على هـذا وذاك مدامة بدت كالعقيق الرطب والذهب الرخص
أعيد لنـا فى كأسها شخص قيصر وكسرى وكادت تبعث الروح فى الشخص
قياصرة فى قصر كسرى وربَّما مجنا فقلنا بل مساكين فى خُصّ(١٠٨)

وقال وجيه الدين الذِرْوىّ :

يفيض على كسرى غلالة قهوة ويسلمه عمداً لراحة سالب
ونص على دين المجوس لهيبها فشقّ الدجى عن صدره مسح راهب(١٠٩)

وقال أيضاً :

ومصـــوَّر نازعت فيـــه على المدامـــة قيصرا
وسلبت منـــه مُتَوَّجاً حتى رجعت مسـوَّرا
ومضيت من عقيانه ولجينه أغـــــنى الورى(١١٠)

وفى هذا ما يشعر بأن هذا النوع من الأقداح المصوَّرة ليس بعربىّ الصناعة كما قلنا ، بل قد صرَّح بعضهم بأنه من الصناعة الفارسيّة كما فى قول أبى نواس :

تدار علينا الراح فى عسجديّة حبتها بأنواع التصاوير فارس
قَرَارَتَها* كسرى وفى جَنَبَاتها مَهًا تدَّريها بالقسىّ الفوارس
فللراح ما زُرَّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس(١١١)

وقول أبى تمام غالب بن رباح الحجَّام الأندلسىّ :

وكأس ترى كسرى بها فى قرارة غريقاً ولـكن فى خليج من الخمر

(*) قال الزجاجىّ فى «أماليه» قوله قرارتها كسرى نصبه على الظرف ، يريد أنه كان فى قرارة الكأس وهى أرضها صورة كسرى .

وما صـورته فارس عبثاً به ولـكنّهم جاءوا بأخفى من السحر
أشاروا لمـا كانوا له فى حيـاته فنومى إليه بالسجود ولا ندرى[١١٢]

ولـكنه ليس بالدليل القاطع على عدم اشتغال العرب بهذا النوع لجواز أن يكونوا احتذوا مثال الفرس فى تصاويرهم عند اقتباس هذه الصناعة عنهم[١١٣]، وهو كثير الوقوع فى انتقال الصناعات من قوم إلى قوم . أما فى غير هذا النوع فمن الثابت أنهم زاولوا صنع الأقداح المصوّرة والمصابيح وسائر الأوانى زجاجية كانت وغير زجاجية بشهادة آثارهم الباقية منها وأسمائهم المنقوشة عليها .

فمن ذلك مجموعة من المصابيح الزجاجية المزخرفة محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، مما صنعه العرب فى العصور الإسلامية[١١٤]، وعلى بعضها أسماء صُنّاعها[١١٥]، وفيها ما هو مصوّر بأنواع النبات والطير . ويندر وجود مثلها فى دور الآثار ، نذكر منها مشكاة عليها اسم السلطان محمد بن قلاوون ، وبين زخارفها كثير من صور الطيور المتقنة الرسم ، ومشكاة بديعة الزخرفة والتذهيب ، عليها صور طيور ومكتوب عليها :

« مما عمل برسم المقر العالى السيفىّ الملك الناصرى »[١١٦] .

وقطعة من كرة تعلّق على المشكاة عليها صور طيور أيضاً[١١٧] ، وقطعة جام من غَضار عليها عصابة من الـكتابة الـكوفيّة وبأسفلها صورة تَيْسَيْن يتناطحان[١١٨] .

وعثروا أخيراً فى أطلال الفسطاط على قطع من الخَزَف المصقول البرّاق الملوّن بالألوان الزاهية المصوّر بصور الإنسان والحيوان وغيرهما[١١٩] . وهى بقايا من أوانٍ وأباريق عربية الصُّنع كتبت عليها أسماء صـناعها كالغيبى والمصرىّ والشـامىّ وغزال والهرمزى وأبى العز[١٢٠] ؛ بل قد اكتشفوا الأفران التى كانت تصنع فيها هذه الأوانى[١٢١]، فلم يبقوا للشك مجالا فى عربيّتها[١٢٢] .

ومن الأوانى العربية المصـورة المحفوظة بدار الآثار قمقم للعطر من الصُّفْر ،

مُكَفَّت*(١٢٣) بالفضة ، مكتوب عليه « يافاعل الخير » ، وعليه صورة جماعة يضربون على آلات الطرب(١٢٤)، وإناء نقش عليه اسم « محمد بن فضل الله » أحد بنى فضل الله العمرىّ المشهورين بكتابة الإنشاء بمصر ، وطرّزت حافته بكتابة فيها ألقابه يتخللها صور طيور(١٢٥)، وإناء آخر عليه صورة فارس(١٢٦) . وفيها غير ذلك من الأوانى كالطاسات والصوانى المصورة بأشكال الحيوان ، والتنانير المنقوشة بصور الفرسان .

وذكر الخالديّان فى كتاب «الهدايا والتحف» ، هديّة أهداها ملك الهند للخليفة المأمون ، فقابلها بهديّة مثلها أرسل بها إلى هذا الملك ، وهى كتاب اسمه « ديوان الأدب وبستان نوادر العقول» ، ومعه تحف كثيرة ، منها مائدة جزع ثمينة وجام زجاج فرعونى فتحته شبر ، وفى وسطه صورة أسد ، وأمامه رجل قد جلس على ركبتيه ، وفوّق السهم فى القوس نحوالأسد(١٢٧) ، وكانت المائدة والجام مما أخذ من خزائن بنى أمية *(١٢٨) .

(*) يريدون بالتكفيت تنزيل الذهب والفضة فى النحاس ونحوه كالتطعيم فى الخشب . ويقال له الكفت أيضاً ولصانعه الكفتىّ ، ومنه قول بعضهم :

بىَ كفتىّ سبانى حسنه ... لا أرى من حبه لى مخرجا
مد تبراً فى حديد فحكى ... قمراً طرّز بالبرق الدجى

وقول آخر :

لله كفتىّ أطاع صبابتى ... فيه الفؤاد وخالف اللوّاما
مدّ الضريط على الحديد فخلته ... قمراً يطرّز بالبروق غماما

وكلها ألفاظ مولدة ، وكان لهذه الصناعة رواج بمصر ولأهلها اشتغال بها على ما فى «خطط» المقريزىّ ، ثم انقطعت منها ، وبقيت منها بقية بالشام إلى اليوم .

(*) ذكر شيخ الربوة هذه المائدة وهذا الجام فى «نخبة الدهر» ، وقال إنهما وجدا فى خزائن مروان بن محمد ، ولم يتعرض لهدية المأمون . وليحقق إن كان هذا الجام من الصناعة العربية أم من الصناعات القديمة ، وليحقق أيضاً إن كان القصد بالفرعونىّ أنه من الآثار العتيقة أم هو نوع من الزجاج عرف بذلك .